العـربات

ماهر رجا

[أمام العربات، تردّد الرجال الطيّبون . ولكنْ، كان عليهم أن يرحلوا . .

إلى الأحياء والأموات الذين يغادرون الآن بلادنا الشاسعة السّقوط. .]

الرجال الطّيبون
يتـركـون القُـرى خلفهـمْ مثـل نهـر الرّمادْ. .
لا تنادي البيوت عليهمْ
لا تفكُّ النّوافذ أزرارها خلفهمْ
كي تردَّ لهمْ
قبلةً في الهواءْ. .

يرحل الطيّبونْ
يجرجر وَحْلُ الخريف معاطفهمْ خلفهمْ
وتطوي خيول الرياح الطريق النّحيلْ
وتطوي الظلام القليل الذي
لفَّ أسماءهمْ. .

لقد آن أن يرحلوا
فبالأمس،
أخفى الظلام مصائده في البراري
ونامْ
ويا. . آهِ، لم يكترثْ للشَّجرْ.
للمنـازلِ، كـانـت تهـرول بيـن المسالكِ
كانت تبعثر قرميدها حولها،
ثم تبكي عليه وراءَ الغمامْ. .
وبالأمس،
لا شَيءَ
لا شيءَ غير القرى المعتمهْ
والخرائب تنسج من صرخةِ البومِ
ثوباً من النومِ
أيلولُ أخفىٰ به كَهْفَهُ
كي يريقَ الخريف على مهلِهِ
في السّهوب. .

. . سيصغونَ
يصغونَ عند انتصافِ الظّلام:
هنـاكَ نـداءٌ ضـريـر سيهـوي علـى الأرصفهْ. .
وَحْدَهمْ يخرجون إليهِ
ولكنه لا يُرىٰ
سوف تأتي التلال البعيدة مجروحَةً
من وعورة أطرافها
من بَعيدٍ
سيومض صوت الذّئاب التي
صَعَّدتْ نَوْحها للفضاء كخيط الدُّخانْ
ـ سوف يهوي العُواءُ
ويخبو
يسيرون،
يهفو فَرَاشُ الدغولِ المضيءُ قريباً
تماماً، كما يفعل الحُلمُ حين يطير
وحين يصير فَرَاشاً. .

. . لم يناموا قليلاً. .
ولم تهدأ الريح منذ المساءِ.
. . كأنّ نحيباً قتيلاً يميل وراء القُرى!
كأن فتى طيباً
لملمتْ أختهُ عظمهُ
ثمّ غنّتْ لهُ
فاستحال طيوراً
تموت انتحاراً. . وراء القُرىٰ. . !

لم يناموا. .

لهم غابةُ الليل تهمسُ..
نادت بأسمائهم، واحداً
واحداً
ثم راحتْ تغسّل أطرافها
بالغناء الحزين ولون الغَسَقْ..
ببطء الجنازاتِ
سَار الصنوبر تحت جناح الغروب
الأخيرِ
ليقبع عند انحدار الطريقْ
ومنذ قليلٍ
تفتّتَ صوت الرعاةِ البعيد،
رويداً
وحلَّ السكون العميقْ..

.. لقد آن أن يرحلوا
فالبنفسج أُفلت من بِركة الدمعِ
ودقَّ فضاء المساء بقهقهةٍ عاليهْ
والعذارى
نسينَ الرسائل تحت الغبارْ
والمدىٰ، في الحقول الصّغيرة كان يثرثرُ
والحَور يصغي.. ويبكي
فقد أرهقتهُ سنينُ الوقوفِ
كأنّ الحياة انتظار..!

.....
لقد آنَ أنْ يرحلوا،
فَلمْ يبق غيرُ العجائز في القريةِ النائيهْ
ساحراتٌ
يجدِّلْنَ شعر الظلام على شجر الزيزفونْ
ويقطفن بعض النجومِ
يُقشّرنَ أضواءها
ويبكينَ في الطرقاتِ
مع الليلِ
والريح
والعَرباتْ..

لَيْلُهمْ غامضٌ
ليلهمْ كان يسقط فوق الرّصيفِ
ويبكي وحيداً كطفلٍ صغيرْ
وكم يخرجون إليهِ
تكون الظلالُ معاطفهمْ
والظلامُ لهمْ
إذْ يمدّون، ممّا لديهم، قناديلهم عالياً
في السّماءْ
.. القناديل تيبسُ في الراحةِ الراجفهْ
القناديل ترجو
وتسقط، حتّى البكاءْ..

لقد آن أنْ يرحلوا..
في السحاب المسائيِّ بين النجيلِ
على أسود الظلّ يحني جبين الهواء
ولمّا على صفحة النهر يغفو
سيحكي لهُ
عن قدومٍ مُدمّىٰ لفصل الشّتاءْ

.. ولما يزلْ من بعيدٍ
يُطلُّ الخريف بأعطافِهِ
من رمادٍ
يطيّرُ طير البرودة من كفِّهِ
...
القرى نائمهْ
القرى في الهزيع الأخير
أَعَدوا جياداً من الليل في هودجٍ
شاحبٍ
.. والسكون دخانٌ.. يرفُّ
السكون الملاك الأخير الذي خانه
الفجرُ
لمْ يرتفع للسماءْ
فراح يذوبُ على الأرضِ؛
بعض سحابٍ.. وماءْ

لقد آن أنْ يرحلوا
وحدهمْ
أن يريحوا على راحة الصّمت أحزانهمْ
أن يسيروا
فتسقط بعض الجراح التي أثقلت
حِملَهُمْ
.. هل يظلّ الشّمال صقيعاً؟؟
أكانت له هجرة الأقدمينَ؟
ولن يعرفوا..
من الثّلج شدّوا رباطاً على جرحهمْ
ما استراحوا قليلاً
وما خيموا في التذكّر وقتاً طويلاً
فصاروا بكاءً
ينسّق شوك الحنينْ...

لقد آن أن يرحلوا
وأن يسألوا الانتظار لماذا
لماذا يصير عجوزاً ثقيل العيون على
حجرٍ في الطّريق؟
لماذا سيبكون آباءهم وحدهم؟
لماذا يعدُّون محرابهم للصلاة هنا
وحدهم؟
لماذا تجفّ حكاياتهم في مصاطب
تلك البيوتْ؟
لماذا تنام حبيباتهم خلف باب أصمَّ
يظلُّ يرجّعُ دقاتهم خلفهمْ؟..
* * *
يرحل الطيّبونَ
بلا أصدقاء
بلا عاشقاتٍ يطرّزن أسماءهم في
الغبار
يرحلونَ،

لأن الصّبايا هجرنَ النّهار،
تربّص ظلٌّ بهنّ على الماءِ
كُنَّ غسلن الثّيابَ
وعلّقن أطرافها فوق هُدبِ العراءْ
عند المساءِ.. اغتسلْنَ
وعند المساءِ.. سَهوْنَ عن الشَّعرِ
مالَ.. وراحْ
وخاضت خيولُ الغريب المياهَ
فأرضينها
بقطر من النَّهدِ
ماءٍ يعابث ليلكة.. للصباحْ...

.. لقد آن أن يرحلوا
لا حقائب غير القلوبْ
بها صفّقوا بعض ريحانهمْ
بين أشيائها
شارعٌ مقمر خِلسةً
زهرةٌ في كتاب عتيقٍ
بها أفسحوا للحقول التي جرحتهم مكاناً
بها فُسحة للغيابِ
عتابٌ بها
للنّساء الصّغيراتِ
حين سيهدينَ للعرباتِ قلائد شوك النّواح
وقد صفّقته الأيادي النّحيلةُ
في قمرٍ أوقعته السّواقي على حضنها..

* * *

الحقول يباب الوَسَنْ
الحقول قطيعُ ذئاب،
عجوزٌ أصابعهُ عوسجٌ
يرتق الريح بها،
بالخيوط التي تقتفيها النّجومُ
لتأخذ روح السّحابْ..
تُرى من يسير هناكَ!؟

وَمَنْ يدخل الآن هذا الظّلام وحيداً..؟
يحاول أصغرهم أن يحرّك في شفتيه
غناءً قديماً؛
قصيدةَ سحرٍ
بها قريةٌ يابسهْ
فوق أسوارها
عَلّقتْ أمّهات البيوت الفقيرة شَمعاً
لئلاّ يغادرَ مستوحِشاً،
أشعلتْ أمُّه شمعةً ثانيهْ
أوقدتْ قلبها
أحرقتْ شمعتين،
تُرى.. من يسير هناك وحيداً؟
ومن أين يأتي الغناء الحزين..؟

* * *

.. هودجٌ شاحبٌ
لا ارتدادَ لوقع الصّدىٰ..
وحدهم
يذرعون منام السّكون الغريقْ
كأنّ القرىٰ
أخرجت ناسَها من خطوط الأكفّ
وذرّت عليهم رماداً
كأنّ الرّجال ارتدوْا بغتةً صَحوهمْ!
كأنّ الضِّياع الصّغيرة لن تستفيق...

لقد آن أن يرحلوا..
ركْبهم يرتعشْ
والوجومُ استراح على دربهمْ
كان يصغي لأنفاسهمْ
يرحلونَ،
فلا أصدقاء لهمْ
ولم يسمعوا هاتفاً واحداً..
خِلسةً،
يلعق الزَرع من حولهم كفَّه الدّاكنهْ
يحلفون لِوَرْدٍ غريبٍ مشىٰ خلفهمْ
أن ترحالهم قد يطول بهم..
الورود الغريبة تتبعهم.. فوق هُدب الأصابعِ
بعد قليل.. سيقتلها شوقها للذّهابْ
قليلاً، لتدرك أن النّبات الذي يهجر الأرضَ
لن يستطيع الإيابْ...

مرّة يرحلونَ
بلا أصدقاءَ
فلا أصدقاء لهمْ
أشعلوا خِلسةً نارهمْ
راهنوا وقتهم برهةً:
ـ إنْ بقينا طويلاً،
تفكُّ السّماء الكحيلة أزرارها
نجمةً
نجمةً
راهنوا؛
ـ نهدها نرجسٌ نائمٌ
أشعلوا نارهم في الدّغول
لكي يستريحوا قليلاً
وَلَفَّ المسافر معطف بردٍ إلى الشّعلة الواهنه..
قد تدقّ الرّياح لأرواحهم في الأعالي حِراباً
قد تدور هواجسهم في الحريقِ الصغيرِ
كرقصِ هنود الجبال
.. سيبكونَ،
مالتْ بهم أرضُهمْ
سوف يعوي ابن آوى على نارهمْ
حين يحسب أن النبات المضيء بعيداً،
نوافير قمحٍ.. وصيف
بلادٌ تهيّئ وديانها للربيعْ
.. ويعوي،
فتُذبحُ في صوته

ذكرياتُ قطيعٍ يضيعْ

. . يرحلونَ،
ولا يشتكون قليلاً
ستشكو لهم بشرة الأرض يوم اليباب البعيدِ
فلا يشتكون من الذكرياتِ
من الأغنياتِ الحزينةِ
ممّا أضاعوا
وممّا أرادوا فلم يستطيعوا
مِنَ العربات التي لم تَعُدْ
من العربات العجوز التي سافرتْ
ذات ليْلٍ بعيدِ
فلم تتَّبِعْها دروبُ البلدْ.

لم يناموا قليلاً
ولم تختلج شاهدات القبور لكي تخرج الأمّهاتْ
طيوفاً منِ الذّكرياتْ
قليلاً
لتلهج عند اقتراب الرحيلِ بخوف الوصايا لهمْ
تصرُّ حوائجهم في قماشٍ قديمٍ
وتسهو،
فتحزم رعش اليدينِ بأشيائهمْ
قليلاً،
لكي يسقط الليل سهواً
لكي ترجوَ النّائحات المباخر أن تحضر الغائبين:
لا يعود الذين مضوْا
البخور يعود إلى النّوم
تبكي التّعاويذ إخفاقها
فالقرى ضيّعت سحرها
يوم أودتْ بأبنائها. . .

مَرّةً يرحلونْ
لا تمد البلاد الصّغيرة صيحاتها خلفهمْ
يكون لهم قحطهم
والظّهيرة
والعربات التي أرهقتها الحقائب من ألف عامٍ
بلا دمعةٍ يرحلونَ
بلا رجفة الريح بين الأصابع عند الوداع
بلا أغنياتِ أماني الرجوعِ
بلا فتيات
تغيّر شيء بهن
فما جئن حتّى يُرقنَ الجِرار على السّاحة القاحلهْ
بلا صِبيةٍ
يلحقون على الدّرب خيلاً
يشدّون شعر الرّواح على خشب القافلهْ. .

لقد آن أنْ يرحلوا
أن يشدّوا جِياداً من الوهم للعرباتِ
جياد الضباب التي
سوف تنفث برد الصباحات من جوفها؛
كلما يظهر الطيّبون صباحاً
يقولونَ: من نام في العربات
فصار دخاناً؟!

لقد آن أن يرحلوا
. . بعد ألفِ عجاف
تقول القوافل: إنّا رأينا رجالاً
يصيرون رملاً
وإنّا رأينا من العربات مئاتٍ
تسابق زوبعةً في الصّحارى
رأينا رجالاً بها يعطشون
فيعصر أكبرهم قلبَهُ في الأكفّ
ولا يشربون. .
. . لألفِ عجافٍ
تقول القوافلُ إن أقبلت في المساء:
سمعنا حِداءً
رجالاً يحنّونَ
صوتاً نحيلاً
ولم ننتبه جيّداً
ولكنْ، كأن نشيجاً طويلاً تعالىٰ
فشدَّ إليه السماءْ
ونادىٰ دماً في كثوب الرمالِ
فأورقَ فيها نخيل النّداءْ. . ،
ونادوْا، غِناءً
قرى زوّجتهم نساء الينابيع يوماً
وحنّت أصابع أقدامهن بطين العراءْ
فغنين نَوْحاً
وأقفلنَ باب الرجوعِ
فصرنَ بيوتاً
وصرن تماثيل ماءْ. . .

لقد آن أنْ يرحلوا. .
في مسيرٍ وئيدٍ
كأنَّ الخُطا أضرحهْ
سوف يخفون تحت المعاطف خيباتهم
سوف يخفون في العربات طيوراً بلا أجنحهْ. .
حين تسقط بين المقاعد أحلامهم
حين تهدأ بعد الرحيل الطواحينُ،
لن يحفلوا بالسّيوف الأخيرةِ
لن يرجعوا
عندما يقتفيهم نشيد الحدادْ
فتلك القرى أصبحتْ خلفهمْ
مثل نهر الرّماد.

دمشق